الحرب الحبشية السودانية ١٨٨٥ ١٨٨٨

تأليف اسماعيل عبد القادر الكردفانى

تحقيق محمد ابراهيم أبوسليم ومحمد سعيد القدال عرض وتعليق عوض عبد الرازق

وهو كتاب الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش تأليف اسماعيل بن عبد القادر الكردفانى والذى قام بنشره معهد الدراسات الافريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم (شعبة أبحاث السودان سابقا) وحققه الأستاذان الدكتور محمد ابراهيم أبوسليم ومحمد سعيد القدال • وقامت بطباعته شركة الطابع السودانى •

يتكون الكتاب من مدخل ومقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة ، وينقسم كل باب إلى عدد من الفصول ، أضاف إليها المحققان مقدمة تاريخية وافية تحدثا فيها عن العلاقة بين الحبشة والمهدية ، سواء من خلال الصراع المسلح أو عن طريق العلاقات الدبلوماسية التى تمثلت فى الرسائل المتبادلة بين الطرفين والتى يظهر فيها تأكيد المهدى لدعوته ويثنى على يوحنا لمحاولته الوقوف على حقيقة هذه الدعوة ويطلب إليه الدخول فى الإسلام ، ولكن يوحنا يرد بعد فترة طويلة متحديا وحانقا •

وفى عهد الخليفة يتصاعد التحرش بين المهدية والحبشة،ويحاول الخليفة أن يعمل بحديث الرسول « اتركوا الحبشة ماتركوكم » ، ولكنه يحتاط لذلك عندما تقوم المناوشات بينهما فيستدعى حمدان أباعنجة ليساهم معه فى هذه المهمة • فقد كانت منطقة القلابات ذات أهمية خاصة للمهدية ، فهى من أهم المراكز التجارية فى السودان ، وباب للتجارة مع الحبشة ، ولذلك كانت المحافظة عليها تعود على المهدية بفوائد تجارية هائلة كما لها أهمية استراتيجية تحافظ عليها المهدية •

وتطرقت المقدمة إلى بعض الموضوعات التى تثير إنتباه القارىء ، فأعطت نبذة عن حياة المؤلف ومؤلفاته ، ونبذة مختصرة عن كتاب الطراز المنقوش

والمصادر التى استقى منها المؤلف معلوماتـه لهذا الكتاب ثم الأسلوب الذى اتنهجه المحققان فى التحقيق •

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يعتبر مخطوطة هامة فى تاريخ المهديـة وعلاقتها بالحبشة ، ومؤلفها شخصية هامـة فى تاريخ المهدية ، فهو من الذين تعلموا فى الأزهر الشريف وأصاب شهرة بين أقرانه من العلماء فى السـودان ارتفع بها شأنه ونال منزلة رفيعة لدى الخليفة عبد الله جعلته يوكل إليه مهمة صياغة تاريخ المهدية •

ويبدو أن المؤلف كان واقعا تحت تأثير شديد يصل إلى درجة الإرهاب أو الخوف عند تأليف الكتاب ، فهو يكثر من الثناء والمدح للخليفة من غـير حاجة لذلك ، وربما مرد ذلك إلى أن تأليف الكتاب جاء عقب إنتصار الخليفة على الحبشة مباشرة مما جعله يطنب على الخليفة • أو لعله بسبب نقمة الخليفة على كثير من الشخصيات البارزة حينذاك حتى قائـده الزاكى طمـل وغيره كالحسين الزهراء ، مما جعل المؤلف يخشى على نفسه التى لم تسلم مـن يـد الخليفة ، بل أنه يذهب أبعد فيجعل انتصار الخليفة على الحبشة نصرا إسلاميا عظيما لم يحصل للإسلام أن سجل مثله فى أرض الحبشـة • ولخشيته مـن الخليفة كان يتجنب ذكر الموضوعات ذات الحساسية بالنسبة للخليفة فلم يذكر شيئا عن مسألة النبى عيسى حيث كان الإعتقاد أنه سيظهر بعد المهدى مباشرة وحتى لا يفهم احتمال ظهوره فى عهد الخليفة ، ولم يذكر الخلاف بين حمدان أبى عنجه ويونس الدكيم لمكانة يونس لدى الخليفة • كما يتفادى ذكر المواضع التى ينهزم فيها الأنصار ويبالغ فى تقريظ تواضـع الخليفة وخدمته لأخـوانه وملازمته لأتباعه وربما لايوجد ذلك حقيقة •

تحدث المتن عن سرية يونس الدكيم إلى ثغر القلابـات وعلى جبير إلى جبل غورة بالحبشة وعربى دفع الله إلى دبرسينه ، وعن حملة حمدان أبى عنجة إلى القلابات ودعمه لجيش المهدية هناك وغزوه للحبشة ثم ولاية الزاكى طمل ونهاية حرب الحبشة • وختم كتابه بالسرايا فى غـرب السودان وصراعه مع يوسف ابراهيم وأبى جميزة وذكـر شيئا عن سرية عبد الرحمن النجـومى فى الشمال وسرية الرجاف ووقائع عثمان دقنه فى الشرق •

ثم ألحق المحققان بالكتاب بعض الملاحق شملت حضرة حدثت للخليفة عن إنتصاره على الحبشة ، ورسم عن حصن القلابات وخريطة للسودان موضحا بها الأماكن الهامة التى دارت فيها الحوادث ، مع ثبت للمراجع وفهارس للإعلام والبلدان والشعوب والطوائف والقبائل ومراجع التحقيق .

وفى تقديرى أن المحققين قد بذلا جهدا طيبا فى التحقيق وفى ذلك خدمة علمية ووطنية جليلة فى تحقيق التراث وإتاحة الفرصة للباحثين للإطلاع على جانب هام من تاريخ المهدية وعلاقاتها مع الحبشة .

وانطباعى عن الكتاب رغم أهميته العلمية وطباعته على ورق جميل إلا أن بعض حروفه ضاعت معالمهما ، كما أن الصفحة الأولى لم تكن موفقة فضلا عن أن إسم المؤلف ينبغى أن يكتب كاملا حسب شهرته فهو اسماعيل بن عبدالقادر الكردفانى وليس اسماعيل عبد القادر كما فى الصفحة الثانية ، وهو يحتاج إلى فهرس للموضوعات . ويشير المحققان إلى أن المؤلف لم يعمل على سرد الوقائع بالتفصيل بقدر ما كان يرمى إلى إبراز النقاط الباهرة والتفاصيل التى تبين سطوة المهدية ، وربما يعود هذا إلى شح المصادر التى يكتب عنها وقلة المعلومات التى ترد عن هذه الأحداث ، إذ لم يشر المؤلف إلى أنه كان يكتب كشاهد عيان ، فى حين أنه كانت قد توفرت لديه كثير من المعلومات والمصادر عند تأليفه كتاب سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى . وكنت أتوقع أيضا أن أجد شيئا عن مكانة المؤلف لدى الخليفة أو فى المهدية رغم أن المحققين قد ذكرا جانبا من ذلك ، ولكن ما كان ينبغى ذكره هو لماذا نقم عليه الخليفة ولماذا سجن حتى مات ، لأن ذلك جاء بعد تأليف كتاب الطراز المنقوش .

أما الخاتمة فقد جاءت بعيدة عن أصل الكتاب ، والعادة أن تكون الخاتمة ذات علاقة بما ورد فى الكتاب وتشتمل على نتائج المعلومات التى أثبتها ، ولكن المؤلف أراد أن ينتقل بنا فى خاتمته من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ليذكر شيئا عن سرايا الخليفة هناك ، ولا أعتقد أن ذلك جاء عفو خاطر أو مجرد حشو ، ولكن ربما تكون بإيعاز من الخليفة لأنها كانت حينذاك قد شكلت جزءا هاما من سياسة الخليفة بغرض إستتباب الأمن وفرض النظام ، فضلا عن أنه أراد الحديث عن حركات أبى جميزة ودعوته الدينية لتفنيدها ودحضها

وتأكيد الفكرة المهدية إذ يقول « قد كان خليفة المهدى عليه السلام من حياة المهدى عليه السلام ناصبا نفسه لحياطة الدين ، وشد أزر المهدية بثاقب عزماته المقرونة بالنصر المبين » ولم أر فى مقدمة المحققين حديثا عن هذا التنافر بين أصل الكتاب وخاتمته .